الأب الفخور

حصل أنه صار أبا لثلاث فتيات ولا صبي، أتت الأولى ففرح بها وشاركه أهل الحي جميعا، دخلوا منزله بمناسبة عقيقتها مهنئين وألسنهم تلهج بكلمات من قبيل " العقبى للصبي". أسماها سناء وصار يصطحبها حيثما ذهب، إلى مجالس الذكر وحلقات التذاكر بل وإلى المسجد أيضا. كانت تنام على صدره أينما اتفق فيحملها إلى فراشه ويُضجعها إلى جانبه، لذا كان الأمر عجيبا أن واتته الفرصة ليصبح أبا مرة أخرى بعد خمس سنوات. حبلت زوجته وأثقلت بطنُها وتوجست خيفة من بنت أخرى. لم تعرف كيف تصارحه بمخاوفها وقررت الانتظار حتى يرى بأم عينيه.

كانت أعين الجيران كلها عليهما، والجميع صار يعرض اقتراحاته بخصوص اسم الذكر القادم أو الواجب قدومه بالأحرى. فكل أهل الحي آباء لأعداد بين الأربعة والسبعة جلهم أولاد وتكون البنت بينهم واحدة أو اثنتين على الأكثر. لا أحد يهتم لأمرهن فهن زائرات فقط يولدن لصالح ذكر من عائلة أخرى،يحمل النسب ويزرع الهيبة لأهل بيته في كل ربوع الحي.

والتحقت الصبية الثانية بالدنيا، كرة صغيرة لم تتوضح معالمها بعد، إلا أنها أنثى وليس الذكر كالأنثى؛ هذا قانون لكل زمان ومكان. ابتسم إلى زوجته المضطجعة على فراش الولادة ابتسامة مُضيئة وهو يقترح عليها اسم علياء، لم تملك إلا أن ترد عليه بمثلها وهي توافق بسرعة خوفا أن تتغير مشاعره. بعد سبع سنوات من الزواج لازالت غير قادرة على النفاذ إلى أعماق زوجها، هي لم تسأله وهو لم يتطوع بالإجابة؛ بينهما حاجز لامرئي، يعرفان بوجوده ويقدران مدى ارتفاعه ولا أحد منهما يقترب منه بحكم العادة؛ لقد كان هناك منذ البداية.

وجاءت العقيقة الثانية، وتبودلت الهمسات في الخارج وحتى في داخل البيت المستبشر بالمولود الجديد، نظراتهم يختلط فيها الخبث بالإشفاق والنساء حمي وطيس نقاشهن عن الوصفات المحتملة والمشعوذين المعروفين للإبقاء على الزوج وجلب الصبي في الكرة المقبلة. أحطن بفراش النُفساء كطوق الإعدام يتجادلن بعنف وبصوت مرتفع عن الأوضاع الحميمية وطبيعة "الوَحم" التي أدت إلى هذا الحاصل المقلق، وهي بينهن يغمرها الخجل والخوف الذي لامُسكّن له إلا تلك الابتسامة المُضيئة على وجه زوجها وكأنه حصل على مراده بالضبط،لا أقل ولا أكثر.

صار يلاعب علياء في المهد وسناء تركب على ظهره لتطل على أختها من فوق؛ يراه الجيران وهو يحمل الصغيرة إلى صدره ويمسك بيد الكبرى ويمشي مختالا كالديك الفخور. وحين بلغت سناء السابعة دخلت المدرسة، اشترى لها الوزرة والكتب المقررة وغير المقررة. كان يقول لها وهو يفتح صفحات كتاب ما:

- صغيرتي، من هنا تستطيعين الحصول على كل شيء، ما لديك وما ليس لديك وما لم تحلمي به يوما.

فتؤمن بكلام أبيها وتمسك قصة تفتحها إلى جانبه وهو ممعن في القراءة إلى أن يمسك النوم جفنيها الصغيرين، وتنضم إليه في موعد الفجر لجولة حالمة أخرى على ضوء قنديل الغاز. نعم مازالت الكهرباء لم تزر ذلك البيت الملتصق بالأرض والذي يعلو بطابق واحد فقط يجعله مكشوفا للبيوت المجاورة التي يتوفر أقصرها على طابقين، أما الماء فيتزودون به بوصل خرطوم طويل مع جارتهم إلى البراميل المصطفة لديهم على السطح، يملؤونها كل ثلاثة أيام. كانت جارتهم الأرملة وأم الأربعة صبيان وفتاة طيِّبةً حقا، وقد عرضت إمدادهم بخيط من الكهرباء أيضا لكن الأب رفض مع الشكر الجزيل.

ما جعله محط استغراب كل السكان أنه كان موظفا حكوميا براتب ثابت ويملك ذلك البيت الفقير إلى كل شيء في حين أنهم، أصحاب عربات اليد المحملة بالخضار والمتراصة على جنبات الطرق، يتنافسون في إعلاء منازلهم وتأثيثها. كان الأطفال يُعيِّرون الصبيتين بمنزلهما فتعودان باكيتين إلى أبيهما تنشدان العزاء، فيمسك كل واحدة من يد ويقف بهما أمام الصفوف الطويلة من المجلدات الثمينة والكتب بكل أنواعها والتي تستهلك جزءا كبيرا من ميزانيته الشهرية ويخاطبهما:

-علياء،سناء،أترين هاته الكتب؟

-نعم بابا.

-إن كلا منها يحوي أجمل بيت بل قصر في الدنيا كلها، ولكن لا يمكن للجميع رؤيته لأنه بناء سحري يحتاج إلى نظارات خاصة لرؤيته.

-وأين هي النظارات بابا؟

-كل منكما لديها نظاراتها يا صغيرتَيّ، إنها القراءة. جربا ورُدّا علي.

ويعطي كل واحدة منهما قصة ترحل بهما إلى عوالم أخرى مبهرة أو قاتمة لكنها مدهشة، تحبس الأنفاس وتنسيهما سخرية الصبية. لقد صار فراشهم يضم أربعة، هو إلى اليسار وزوجته إلى اليمين وبينهما سناء وعلياء،لذا كان أمرا عجيبا أن تعلن زوجته عن قرب انضمام عضو آخر إلى العائلة. ومرة أخرى صاروا عُرضة لألسنة أهل الحي، الكل يترقب معهم 'الربحة أو الذبحة'. وأطلت الصغيرة نجلاء برأسها تستكشف بحذر وجود مكان لها وتلقفتها أحضان والدها وأسَرتها

ابتسامته المضيئة فابتسمت، واطمأنت الأم التي كانت تنتظر مع آلام الولادة انفجارا أكبر لغضب زوجها الذي عرضته لتجريح رجال الحي ونساءه بعد عجزه عن الإتيان بمن يحمي ظهره وهو رب أسرة بأربعة إناث. لم يلتفت إليهم، كان فقط سعيدا ببناته وكتبه.

كبُرت الفتيات واتسعت ثقافتهن، صار بيته فضاء لنقاشات لا تنتهي بلغات مختلفة وأفكار متجددة،كان يجلس بينهن وهم يستمعون لأخبار العالم أو يحللون حدثا ما، يشعر بأن رسالته حُقّقت وأنه على الطريق الصحيح لتأدية مهمته، أما الأم فتشاركهم الجلوس بصمت أو بحديث جانبي عن تفاصيل اليومي، تنظر إليه فتراه فخورا فتشعر بأن رسالتها هي أيضا حُقّقت وأنها على الطريق الصحيح لتأدية مهمتها.